﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطَۢا ١٢٦﴾ [النِّساء: 126]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أوعد المشركين بعذاب النَّار خالدين فيها، ووعد المؤمنين بالنَّعيم الدَّائم في الجنان خالدين فيها؛ ناسب هنا أن يُذكِّر بقدرته سبحانه على إنجاز وعده ووعيده، وللتَّدليل على أنَّه المستحقُّ وحده لإسلام الوجه له والتَّوجُّه إليه، في كلِّ حال، ولنفي شبهة المناسبة أو المقاربة في اتِّخاذ الله إبراهيم خليلًا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَيۡءٖ﴾: جذر الكلمة هو (شيأ)، الشَّيء: قيل: هو الَّذي يصحُّ أن يُعلم، ويُخبَر عنه كثير من المتكلِّمين، هو اسم مشترك المعنى؛ إذ استُعمل في الله وفي غيره، ويقع على الموجود والمعدوم، وهو عبارة عن الموجود، وأصله: مصدر شاء، وإذا وُصف به تعالى؛ فمعناه (شاء)، وإذا وصف به غيره؛ فمعناه: المَشِيءُ، وعلى الثَّاني قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: 16]، والشيء هنا بمعنى: المفعول، وقوله: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾ [الأنعام: 19]، فهو بمعنى: الفاعل، كقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 14][1].

2) ﴿مُّحِيطَۢا﴾: جذر الكلمة هو: (حوط)، حاط يَحُوطُ، والاسم: الحِيطة، يقال: حاطَهُ حيطةً؛ إذا تعاهده[2]، والحائط الجدار الَّذي يحوط بالمكان، والإحاطة تقال على وجهين، أحدهما: في الأجسام، نحو: أحطَّ بمكان كذا، أو تستعمل في الحفظ، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ [فصّلت: 54]، أي: حافظ له من جميع جهاته، وتستعمل في المنع نحو: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ [يوسف: 66]، أي: إلا أن تُمنعوا، والثَّاني: في العلم نحو قوله: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ١٢﴾ [الطَّلاق: 12]، والإحاطة بالشَّيء علمًا هي أن تعلم وجوده وجنسه وكيفيَّته وعرضه المقصودَ به، وبإيجاده وما يكون به ومنه وذلك ليس إلَّا لله تعالى[3].

(1) الراغب، المفردات: (شيأ).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (حوط).
(3) الراغب، المفردات: (حوط).

❁ المعنى العامُّ للآية:

ختمت الآيات السَّابقة بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطَۢا﴾؛ للتَّذكير بقدرته على إنجاز وعده ووعيده، في الآيات الَّتي قبلها، وللتَّدليل على أنَّه المستحقُّ وحده لإسلام الوجه له والتَّوجُّه إليه، في كلِّ حال، ولنفي ما ربَّما يسبق إلى الأذهان من اللَّوازم العادية، في اتِّخاذ الله إبراهيم خليلًا، كأن يتوهَّم أحد أنَّ هنالك شيئًا من المناسبة أو المُقاربة، فبيّن تعالى أنَّ كلَّ ما في السّموات والأرض ملكٌ له ومن خلقه[1]، وهو مع ذلك قادر على ما يريد من إقرار وتبديل، ولذلك قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّـهُ﴾، أي: المَلِك الَّذي له الكمال كلُّه، وقوله: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطَۢا﴾، أي: منهما ومن غيرهما ﴿مُّحِيطَۢا﴾ علمًا وقدرة، فمهما زاد؛ كان في وعده ووعيده للمطيع والعاصي، لا يخفى عليه أحد منهم، ولا يعجزه شيء[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة القصر في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

من الأمور الدَّاخلة في حقيقتهما والخارجة عنهما المتمكِّنة فيهما من أولي العلم وغيرهم، أي: كلُّها له تعالى خَلْقًا ومِلكًا وتَصَرُّفًا لا شِركةَ لِغيره في شيءٍ منها بوجه من الوجوه[3]، أي: كلُّها مِلك له تعالى، ومختصَّة به، فله أن يلزم من شاء من مملوكاته بما شاء من تكليفاته، وليس لأحدٍ أن يقول: المال مالي أتصرَّف به كيف شئتُ[4].

الكونُ كلُّه لله تعالى خَلْقًا ومِلكًا وتَصَرُّفًا لا شِركةَ لِغيره في شيءٍ منها

وتقديم اسم الجلالة المجرور باللَّام مفيد للقصر، أي: له لا لغيره، فيفيد قصرها على كونها لله لا لغيره، من باب قصر الصِّفة على الموصوف.

سرُّ التَّعبير بـ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

وعبَّر بـ﴿مَا﴾ – وإن كان ثَمَّ من يعقل – لأنَّ الغالب إنَّما هو جماد،

تغليب غير العقلاء على العقلاء، وتقرير لكمال قدرته تعالى

(1) رضا، تفسير المنار: 5/395.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/415.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/272.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/62.

ويقلُّ من يعقل من حيث قلَّةُ أجناسه؛ إذْ هي ثلاثة: ملائكة، وإنس، وجنٌّ، وأجناس الآخرين كثيرة[1].

وكلمة ﴿مَا﴾ لتغليب غير العقلاء على العقلاء، فهو تقرير لكمال قدرته سبحانه على جميع الأشياء، وبيان لاندراج الكلِّ تحت ملكوته، يتصرَّف فيه كيفما يشاء إيجادًا وإعدامًا وإثابةً وعقابًا[2].

طباق الشُّمول في قوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

الإحاطة بما في السّموات وما في الأرض

لمَّا أخبر بمن يحبُّه، ومن يبغضه، وبما يرضيه، وما يغضبه، وكان ربَّما توهَّم عدم القدرة على أخذه لغير ما أخذ، وجعله لغير ما جعل، أو تعنَّت بذلك متعنِّت، فظنَّ أنَّ في الكلام دخلًا بنوع احتياج إلى المحالة أو غيرها؛ قال: ﴿وَلِلَّهِ﴾، أي: والحال أنَّه للمختصِّ بالوحدانيَّة، فلا كفُوء له، ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ولمَّا كان السِّياق للمنافقين والمشركين؛ أكَّد، فقال: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ من إبراهيم -عليه السلام- ومن غيره إشارة إلى أنَّه التامُّ المُلك العظيم المِلك، فلا يعطي إلَّا من تابع أولياءه، وجانب أعداءه، ولا يختار إلَّا من علمه خيارًا[3]، والعبارة طباق بين السّموات والأرض، تدلُّ على السِّعة والشُّمول، فإنَّه سبحانه له كلُّ شيء، وهو خالقه.

التَّذييل في الآية الكريمة:

العالَم مملوك لله، وعلى المملوك طاعة مالكه

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطًا﴾ تذييل لما قبلها؛ فقد حملت التَّبكيت للَّذين ادَّعوا الخيريَّة والأفضليَّة عند الله سبحانه، وما قدروا الله حقَّ قدره؛ إذ إنَّ لله ما في السَّموات وما في الأرض، وأنَّه سبحانه محيط بكلِّ شيء، فلا يغيب عن علمه أمر، فلمَّا تقدَّم ذكر عامل السُّوء وعامل

(1) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 1/389.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/155.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/414.

الصَّالحات؛ أخبر بعظيم مُلكه ومِلكه بجميع ما في السَّموات، وما في الأرض، والعالم مملوك له، وعلى المملوك طاعة مالكه، ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة لما ذكرناه، ولما تقدَّم ذكر الخلَّة؛ فذكر أنَّه مع الخلَّة عبد الله، وأنَّ الخلَّة ليست لاحتياج، وإنَّما هي خلَّة تشريف منه تعالى لإبراهيم - عليه السلام - مع بقائه على العبوديَّة[1].

التَّذييل في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطًا﴾:

تقرير مضمون امتلاك الله تعالى للكون كلّه

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطًا﴾ تذييلٌ مقرِّر لمضمون ما قبله؛ فقد أحاط سبحانه كلّ شيء علمًا، وأحاطت قدرته بكلِّ شيء تسييرًا لأقدارها، وضمانًا لأحوالها، فلا يخرج شيء عن إرادته أو عن اختياره، ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾ سبحانه، فهو سبحانه يخلق، ويُبدع، ويُعلِّم، "وقد أحاط علمه بجميع المعلومات، وبصره بجميع المبصرات، وسمعه بجميع المسموعات، ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الموجودات، ووسعت رحمته أهل الأرض والسَّموات، وقهر بعزِّه وقهره كلَّ مخلوق، ودانت له جميع الأشياء"[2].

دلالة التَّنكير في قوله: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٖ﴾:

عموم الإحاطة بكلّ شيء

كلمة (كلٍّ) الدّالَّة على العموم والإحاطة، وأكَّد ذلك، وعمَّق معناه: كلمة ﴿شَيۡءٖ﴾ بمدلولها وتنكيرها، فمقتضى القدرة المُطلقة أن يكون كلُّ شيء في محطِّ قدرته وعلمه سبحانه.

الاستعارة في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطًا﴾

وفي: ﴿مُّحِيطًا﴾ عبّر به عن العلم بالشَّيء من جميع جهاته، والحذف في عدَّة مواضع[3]، فشبَّه العلم بالإحاطة، وهي استعارة مكنيَّة، وفائدتها: بيان سعة علمه، وأنَّه حائز على كلِّ الأثر في الحياة، وأن لا شيء يخرج عن دائرة حكمته سبحانه.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/78.
(2) السّعدي، تفسير الكريم الرحمن: 1/206.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/78.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن، سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 8 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-60-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 8 : سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-60-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8115353 بتاريخ 2023/03/22م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»